دور اليهود التجاري في إفريقيا قبل الكولونيالية

ملاحظات حول السياقات التاريخية والجغرافية

د. محمد عبد الكريم أحمد

معهد الدراسات المستقبلية- بيروت

يكتنف تصنيف «دور اليهود» التجاري في القارة الإفريقية وتناوله عدة إشكاليات، أولها اللجوء إلى تبنّي مقاربةٍ قائمة على تصورات «إثنو-دينية»، بما تتضمنه من تناقضات وتفسيرات مضللة في أحيانٍ كثيرة في حالة «الوجود اليهودي» برمّته في إفريقيا.

ثم تعقيد تشـابكات «العنصر اليهودي» في التطورات التاريخية المستمرة في نقاط ارتكاز تطـور التجارة ونتائجها في القـارة الإفريقية، سـواء في مصر التي تطل علـى البحر الأحمر والبحر المتوسط، وكانت أهم مركز تجاري في القارة الإفريقية حتى قبـل العهود الكولونيالية الحديثـة، أو في غرب إفريقيا التي كانت بعض مراكزها (تحديـداً مواطئ أقدام الاسـتعمار البرتغالـي) وجهةً لليهود المطرودين من شـبه الجزيـرة الأيبيرية عند نهايـة القرن الخامس عشـر، حيث كان الوجود اليهـودي في هاتين الحالتيـن غير قائـم بذاته، وكان اسـتمراره خاضعاً بدرجات متفاوتة- كما سيلي التوضيح- لمـدى الالتزام بتوجهات ونظم إدارة الحكام في مصر الإسلامية أو البرتغاليين في مطلع العهد الكولونيالي.

إضافةً إلى مسـألة بالغـة التعقيد، يمكن وصفها بتجاهل معرفي واضح، ومستمر، بحكم تخوفات باتت راسخة، لدور العناصر اليهودية- ضمن عناصر أخرى من بينها جماعات إفريقية- في «الاسـتغلال» الذي عانت منه أقاليم القارة المختلفة، سواء اقتصادياً (عبر النهب أو التجارة غير المتكافئة)، أو بشـرياً (كما تمثل في تجارة العبيد الأطلسية، التي برز دور التجار اليهود بها فعلياً، دون أن تشـير إلى ذلك مباشرة الأدبيات المعنية).

وتحاول هذه الورقة تعميق بعض الملاحظات المعنيـة بالسـياقات التاريخيـة والجغرافية المتشـابكة، التي جـاء في حدودهـا «الدور» اليهودي في تطور أنشـطة التجارة في إفريقيا حتـى العصـر الكولونيالي، بهـدف رؤية هذا الدور- قدر الإمكان- مجرداً من المغالاة، ومن أوهام عددٍ كبير من دعاة «الأفروعمومية» بمثال يهـودي- صهيوني لحركة الانعتـاق الإفريقية.

قدرت مصادر مختلفة عدد الجماعة اليهودية في مدينة الفسطاط أواخر القرن الحادي عشر بسبعة آلاف يهودي، شكل التجار الفئة البارزة بينهم

وكذلك بهدف محاولة اختراق تنميطات راسخة في «المعرفـة الإفريقية» الموروثة من التجارب مع «المسـتعمر»، أو الواقعة- إن جاز التعبير- علـى أطـراف «متروبـول» غربي، سـواء في أوروبا أو عبـر المحيط الأطلنطي في الولايات المتحدة، وإن باسـم تيـارات «أفريقيانية» من قبيل تيار «المركزيـة الإفريقية»، ومن قبله كلٌّ من «الوعي المزدوج»، و«الشخصية الإفريقية»؛ مما يمثل- ربما- نقداً غير مباشـر لبنية هذه التيـارات فيما يخـص اضطـراب معاييرها، وانتقائيتها الواضحة، في تصور «الآخر» وأدواره في «استغلال القارة».

أولاً: الاقترابات الأولى: التجار اليهود من عالم البحر المتوسط إلى فضاءات «فسطاط مصر»:

ظلـت مصـر بعـد الفتـح الإسـلامي مركـزاً تقليديـاً للجماعة اليهوديـة الهيللينية Hellenistic Jewry، التي لم تكن متجانسـة إثنياً، بل مجموعـة من عناصر متنوعة اعتنقت اليهودية على فترات متعاقبة حسـب انتقادات أصيلـة لفكـرة العـرق اليهودي ومشـروعها الصهيوني لاحقـاً، خاصةً بعـد تراجع أعداد اليهود المصريين خلال العصر المسـيحي وما تلاه.

ووفقاً لابن عبد الحكم (المؤرخ البارز لفتوح مصر وأخبارها منذ بداية العصر الإسلامي، ت.٢٥٧هـ/٨٧١م)؛ فإنه كان هناك قرابة ٤٠ ألف يهودي في مدينة الإسكندرية (عاصمة مصر وقتها وكبرى مدن إفريقيا التجارية لقرون طويلة) وحدها في العام ٦٤٢ ميلادياً (عند سقوط المدينة في يد المسلمين)[١]، عند دخول المسلمين للمدينة نشطوا بالأساس في تجارة البحر المتوسط، وإن رجّح مؤرخون لاحقون أن يكون العدد في حدود أربعة آلاف يهودي فقط[٢]؛ وكانت مصر وحدها تسهم- وفق تقديرات مؤرخين كثر- بما يعادل ٣٠٪ من إجمالي عائدات الإمبراطورية البيزنطية من الضرائب، مما يعزز فرضيات استمرار نمو وحيوية الاقتصاد المصري في الزراعة والتجارة والإنتاج الحرفي[٣]، ويفسر من ناحية أخرى تركز التجار اليهود في الإسكندرية بهذه الأعداد الملفتة.

وقد بدأ اليهود، الذين تزايد حضورهم في مدينة الفسطاط (بحي مصر القديمة بالقاهرة حالياً) بشكل ملموس منذ القرن العاشر للميلاد، في المساهمة بنشاط- إلى جانب الطوائف الأخرى- في «الثورة التجارية» التي تلت قيام الخلافة العباسية وتوسعها في مصر.

كما سبق أن هاجرت أعدادٌ من اليهود إلى مصر من «المشرق العربي» على خلفية الاضطرابات السياسية في العراق وإيران منذ النصف الثاني من القرن التاسع (وكانت مراكزهم في العراق وفلسطين، حيث تركزوا في العراق في بابل (بافل Bavel بالعبرية)، أو بابيلونيا Babylonia، وهو اسم يتطابق مع تسمية حصن بابليون في مصر القديمة بالقاهرة حالياً، حيث استقرت الجماعة اليهودية بشكل أساسي على مقربة أمتار من الحصن).

وكان هناك «معبدان» يهوديان في الفسطاط قبل بناء القاهرة الفاطمية (٩٦٩م)، أحدهما فلسطيني (كنيسة الشاميين) (أو ما عُرف في بعض الفترات بمعبد فلسطين)، والآخر عراقي (كنيسة العراقيين)، وأوردت «وثائق الجنيزة» أسماء أكثر من ٩٠ مدينة وقرية مصرية عاش فيها اليهود بأعداد متفاوتة، ومنها «مدينة ديلاز» Dilaz في الفيوم، والتي وُلد بها سعيد بن يوسف جاعون «الفيومي» (٨٨٢-٩٤٢م) وعاش فيها حتى رحل إلى طبرية بفلسطين، حيث ترجم التوراة من العبرية إلى العربية، ويرى مؤرخون أن ذلك يشير إلى وجود قدر لا بأس به من التعليم اليهودي في مصر في ذلك الوقت[٤].

وفي مطلع الحكم الفاطمي في مصر (بعد الاستيلاء على الإسكندرية عام ٩٦٩م)؛ اعترفت الدولة بجاعون فلسطين كصاحب السلطة المجتمعية الأعلى على جميع يهود الدولة الفاطمية.

وفي العام ١٠٦٥م تقريباً (في نفس الوقت

(١) فتوح مصر والمغرب- عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو القاسم المصري (المتوفى: ٢٥٧هـ) - مكتبة الثقافة الدينية. ١٩٩٥ م ، ص ١٠٦

(٢) Stillman, Norman A. The non-Muslim communities: the Jewish community (in: Petry, Carl F., editor, Islamic Egypt, 640-1517, The Cambridge History of Egypt) Cambridge University Press, Cambridge, 2008, p.198.

(٣) Kaegi, Walter E. Egypt on the eve of the Muslim conquest, (in: Petry, Carl F., editor, Islamic Egypt, 640-1517, The Cambridge History of Egypt) Cambridge University Press, Cambridge, 2008, p.36.

(٤) Stillman, Norman A. The non-Muslim communities: the Jewish community, Op. Cit. pp. 199-201.

تقريباً الذي نقل فيه البطريرك كريستودولوس Christodoulos مقر إقامته في الإسكندرية إلى فسطاط مصر «عاصمة الخلفاء» في الكنيسة المعلقة بمصر القديمة الحالية، وأمضى أغلب وقته في «دير الشهيد سيرجيوس» (المعروف شعبياً بأبي سرجة)؛ وجرى العرف وقتها على إجراء عملية اختيار البطريرك بها[١]) تكوّن منصب سلطة يهودية أعلى على جميع اليهود في مصر، واعترفت به الدولة الفاطمية، وحمل المنصب لقب «رأس اليهود»، وأشير له بالعبرية بلفظ «أمير» nagid (المستخدم في مطلع القرن ١١ في المغرب وإسبانيا). وتطورت وظيفة «رأس اليهود» ببطء بالغ طول القرنين التاليين في ظل الفاطميين والأيوبيين.

وفي العصر المملوكي؛ ترسخت مهام هذا المنصب ومسؤولياته المجتمعية، بما فيها شؤون التجار اليهود ومعاملاتهم، حيث أصبحت أكثر رسمية ووردت معلومات متفرقة عنه في الكتب المعاصرة مثل صبح الأعشى للقلقشندي الذي وصف المنصب بأنه دينيّ ومعنيّ بالطقوس[٢]؛ بينما قدّرت مصادر معاصرة أن عدد اليهود في «فسطاط مصر» بلغ في مطلع النصف الثاني من القرن الثاني عشر نحو سبعة آلاف يهودي[٣].

وورث صلاح الدين الأيوبي (ت.١١٩٣م) أولويات سياسات الدولة الفاطمية، ولاسيما الاقتصادية، وكانت أول مشكلة أمامه هي استئناف التجارة لتوفير دخل للدولة وللمجهود الحربي. ومن أجل تحقيق الاستقرار في العلاقات مع التجار الأوروبيين، بعد فترة اضطراب بسبب غزوات اللاتين، وقّع معاهدات مع المدن التجارية الإيطالية، وسمح لتجارها وغيرهم بالاستقرار في الإسكندرية، وتراجع عن محاولة إلزام الدولة التجار المسيحيين واليهود بدفع ضعف الضريبة وعاد إلى مساواتهم بالتجار المسلمين، كما عزز صلاح الدين توجه تجارة مصر نحو البحر الأحمر والمحيط الهندي وفي سبيل ذلك أقام العديد من المرافق لتيسير حركة التجار على طرق التجارة الرئيسة من المحيط الهندي إلى البحر المتوسط عبر البحر الأحمر[٤].

واستمر وفود العناصر اليهودية إلى مصر والاستفادة من مركزها الاقتصادي والتجاري، حيث ينقل برنارد لويس عن المؤرخ ابن القفطي (القرن الثالث عشر) في كتابه (تاريخ الحكماء) قصة رجل الدين والطبيب اليهودي موسى بن ميمون، المولود في قرطبة وقضى سنواته المبكرة في المغرب، واضطر «تحت وطأة (ما نَظَرَ إليه على أنه) تشدد حكم الموحدين» إلى إعلان اعتناقه الإسلام، وانتهز أول فرصة وفرّ بأسرته إلى مصر التي كانت أكثر تسامحاً إزاء اليهود وعاد ليهوديته، وأصبح نقيباً للجماعة اليهودية في القاهرة، ورفض قاضيها معاقبته

(١) Richard, Jean The Eastern Churches (in: Luscombe, David and Riley-Smith, Jonathan, editors, The New Cambridge Medieval History, Vpl. IV, 1024-1198, Part I) Cambridge University Press, Cambridge, 2004, p.593.

(٢) Stillman, Norman A. The non-Muslim communities: the Jewish community, Op. Cit. pp. 203-4.

(٣) Campbell, Gwyn, Africa and the Indian Ocean World from Early Times to Circa 1900, Cambridge University Press, Cambridge, 2019, p.112.

(٤) Stillman, Norman A. The non-Muslim communities: the Jewish community (in: Petry, Carl F., editor, Islamic Egypt, 640-1517, The Cambridge History of Egypt) Cambridge University Press, Cambridge, 2008, p.207.

بالردة بالنظر إلى أنه اعتنق الإسلام مكرهاً[١].

واستمرت أنشطة الجماعة اليهودية في القاهرة ومصر في العقود التالية، وعلى سبيل المثال: قدّم ابن دُقماق (في القرن الرابع عشر) وصفاً «لكنائس اليهود بمصر»، وأنها تتمثل في «❊ كنيسة اليهود العراقيين: هذه بقصر الروم بزقاق اليهود بجوار المعلقة. ❊ كنيسة اليهود الشاميين: بقصر الروم بجوار خوخة خبيصة والدرب هناك. ❊ كنيسة القرايين: بالممصوصة بزقاق من أزقة درب الكرمة»[٢].

وكان ازدهار مصر الاقتصادي في الفترة الفاطمية قائماً- إلى جانب التقدم في الزراعة- على التجارة الدولية؛ إذ استفادت مصر كمنتج ومستهلك، ومستورد ومصدر، من موقعها على طريقي تجارة رئيسيين، وإطلالها على البحر المتوسط والبحر الأحمر ومنه إلى المحيط الهندي، إذ ساعدها هذا الموقع على حماية مصالح الفاطميين عندما كانت تغلق بعض الطرق في أوقات متفرقة.

وكان تغيير مسار التجارة من ولاية «إفريقية» إلى مصر في القرن العاشر وهجرة التجار إلى مصر وثيق الصلة بتحرك الفاطميين شرقاً إلى مصر. كما لم يمثل سقوط الأراضي السورية في يد الحملات الصليبية ووقف طرق التجارة منها إلى مصر ضربة مميتة لتجارة الدولة الفاطمية، بل كان نقل مسار التجارة من شمالي البحر الأحمر إلى وادي النيل لصالح الفاطميين من عدة نواح، فقد أدى إلى توسع تجارة المحيط الهندي، التي شكلت التجارة الإفريقية رافداً مهماً لها، واهتمام الفاطميين بحماية طريق البحر الأحمر الملاحي، والتجارة عبر وادي النيل، ويمكن أن يكون ذلك في سياق العدد الكبير من الوزراء العسكريين في القرن الثاني عشر الذين جاؤوا من مدينة قوص في صعيد مصر[٣].

وإجمالاً؛ فقد قدرت مصادر مختلفة عدد الجماعة اليهودية في مدينة الفسطاط أواخر القرن الحادي عشر بسبعة آلاف يهودي، شكل التجار الفئة البارزة بينهم[٤].

وفيما يتعلق مباشرةً بصلة التجار اليهود بالبحر الأحمر والقرن الإفريقي، انطلاقاً من هذا المركز التجاري المهم للفسطاط (حتى حرقها في العام ١١٦٨م)، فقد توجه التجار اليهود من الفسطاط إلى مدينة قوص (بقنا الحالية) لمواصلة أعمالهم التجارية داخل مصر، وفي مسارات تجارتها مع المحيط الهندي وسواحله الغربية في إفريقيا، ومن قوص إلى ميناء القصير على طريق الحج المصري إلى مكة، وظلت هذه الحركة نشطة للغاية في النصف الأول من القرن الحادي عشر؛ كما ورد في وثائق ومراسلات «الجنيزة» بخصوص

(١) Lewis, Bernard, Cultures Conflict: Christians, Muslims, and Jews in the Age of Discovery, Oxford University Press, New York, 1995, pp. 87-8.

(٢) كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القسم الأول، لابن دقماق، ص ١٠٨، ط. المكتب التجاري- بيروت.
وانظر:
Worman, Ernest James, Notes on the Jews in Fustāt from Cambridge Genizah Documents, The Jewish Quarterly Review , Oct., 1905, Vol.18, No.1 (Oct., 1905), p.11.

(٣) Sanders, Paula A. The Fatimid State, 969-1171 (in: Petry, Carl F. editor, The Cambridge History of Egypt, Vol.1, Islamic Egypt, 640-1517) Cambridge University Press, Cambridge, 2008, pp. 161-2.

(٤) Campbell, Gwyn, Africa and the Indian Ocean World from Early Times to Circa 1900, Cambridge University Press, Cambridge, 2019, P.112.

التاجر اليهودي البـــارز في قوص حينذاك «أبو يوســـف العازر بن إسماعيل»، وشراكته مع تجار الفســـطاط في تجارة البحر الأحمر، سواء من الهند أو من الســـواحل الإفريقية الشرقية (وإن تعلق الخطاب المؤرخ بالعام ١٠٣٨م بالأســـاس بمسألة شخصية كما يتكشف من بقية النص)[١].

ثانياً: اليهود وتجارة البحر الأحمر والقرن الإفريقي:

تزايدت الأهمية الاقتصادية للإســـكندرية، التـــي كانت لقرونٍ بـــؤرة تركز التجـــار اليهود الناشـــطين في تجارة عالمَي البحر المتوســـط والبحـــر الأحمر، وفي تجارة العالم بين آســـيا وإفريقيـــا وأوروبا عندما نقـــل الفاطميون مقر حكمهم من «المهدية» في تونس مصر، وعنايتهم بـ«مصر القديمة» التي كانت تتوجه منها التجارة القادمة من الإســـكندرية إلى البحر الأحمر أو العكـــس، ولاحظ كبار المؤرخيـــن والرحالة في هـــذا العهد تجـــدد تدفق التجـــارة عبر البحر الأحمر وآثارها الاقتصادية على مصر من القرن الحادي عشر فصاعداً، مثل ما أورده المقدسي عن «عاصمة مصر» (الفســـطاط) بأنها مدينة عظيمة بكل المقاييس، وبها كافة دواوين الدولة، وأنهـــا «مركز تجارة العالـــم»، ولا يمكن مقارنة مدينة السلام (بغداد) بعظمتها، وأنها (أضحت) بيت كنوز الغرب وسوق الشرق[٢].

كما تعززت تجارة مصر مع المحيط الهندي عبـــر البحر الأحمـــر، مروراً بســـواحل القرن الإفريقي والأجزاء الشـــمالية من شرق إفريقيا، منذ منتصف القرن التاســـع عقب تمدد الهيمنة الإســـلامية في البحر المتوســـط وعلى طرق التجارة به بين مصر وســـوريا ومصر والمغرب والأندلس.

وقد ذكر نـــصٌّ للجغرافي ابـــن خرداذبة[٣] (ت. حوالي ٩١٢م) ســـفر التجـــار اليهود عبر هذه الطـــرق التي أشـــرفت عليهـــا مصر في العهود المختلفة، وأنهم هجـــروا طريق الخليج («العربي») لصالح طريق الملاحة المباشر بين اليمن والهنـــد؛ الذي عادت له أهميته بعد فترة تراجع في عهد الأمويين.

كما ســـبق أن ذكـــر اليعقوبي- فـــي القرن التاســـع- النشـــاط التجاري المهـــم في ميناء «عيذاب» على الســـاحل الغربـــي للبحر الأحمر (في أقصى جنوب حدود مصر السياسية حالياً)، والذي يبعد عن أسوان مسيرة خمسة عشر يوماً وثلاثة عشر يوماً من مدينة قوص (بمحافظة قنا حالياً) بصعيد مصر، الذي اســـتقرت به أعداد صغيرة نســـبياً من الأسر اليهودية التي اشتغلت بالأســـاس بالتجارة عبر النيل أو البحر الأحمر (كما يتضح في بناء ما عُرفت بـ«كنيسة موسى» على الضفـــة الغربية للنيل جنوبي «فســـطاط مصر» على بعـــد بضعة أميال في القرنين ١١-١٢م، ومســـاهمة هذه الأسر حســـب المصادر اليهودية في عمليـــة البناء[٤])، والذي حل محله

(١) Rustow, Marina, Heresy and the Politics of Community: The Jews of the Fatimid Caliphate, Cornell University Press, New York, 2008, pp. 304-5

(٢) Chaudhuri, K. N. Trade and Civilisation in the Indian Ocean: An Economic History from the Rise of Islam to 1750, Cambridge University Press, Cambridge, 1985, p.58.

(٣) المسالك والممالك - أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة (المتوفى: نحو ٢٨٠هـ) - دار صادر أفست ليدن، بيروت - عام ١٨٨٩ م - ص ١٠٣

(٤) راجع الدراسة المصدرية المهمة القائمة على وثائق الجنيزة والمصادر التي نقدتها: Golb, Norman, The Topography of the Jews of Medieval Egypt, Journal of Near Eastern Studies, Vol.24, No.3, Erich F. Schmidt Memorial Issue. Part One (Jul., 1965), pp. 251-270

لاحقاً ميناء «القصير» الذي لا يبعد عن مدينة قوص سوى ثلاثة أيام فقط[١].

وقدّم كل من س. د. جويتن ومردخاي أ. فرايدمان ضمن العمل الملحمي الكبير عن وثائق الجنيزة مجلداً حول تجار الهند الذين مروا بسواحل شرق إفريقيا والبحر الأحمر، وصولاً إلى القصير والفسطاط في مصر، حمل اختصاراً عنوان (كتاب الهند)، طرحوا في مقدمته فكرة مهمة، وهي انخراط اليهود في مصر في تجارة العبيد عبر البحر الأحمر وشرق إفريقيا منذ القرن التاسع الميلادي على الأقل، رغم عدم وجود إشارات مباشرة في الوثائق اليهودية لهذا الدور في الفترة من القرن العاشر حتى الثالث عشر، سواء في البحر الأحمر وإفريقيا أو البحر المتوسط، ودلل على هذا الدور وثائق الجنيزة التي تعود للقرن السادس عشر (بينما أشار المؤلفان في مقدمة عملهما إلى عدم قدرتهما على تفصيل الأمر في عملهما الذي طُبع بتمويل جامعة إسرائيلية)، حيث وردت بها نصوصٌ صريحة عن تجدد النشاط اليهودي في تجارة العبيد في وقت حركات التوسعات العثمانية الكبيرة. وقدمت وثائق الجنيزة حصراً للبضائع التي جاءت إلى مصر عبر البحر الأحمر وميناء عدن، والتي كان لليهود دورٌ في الاتجار بها، وأهمها المنسوجات (التي اشتهرت بها مناطق القرن الإفريقي منذ أقدم العصور)؛ والأواني والحُليّ الفضية؛ وبعض المفروشات المنزلية؛ والكيماويات والأدوية والصابون والورق والكتب؛ والمعادن والمواد الخام الداخلة في تعدين النحاس؛ وبعض الأغذية مثل الجبن والسكر وزيت الزيتون[٢].

ونقل اليهود، الذين انخرطوا بقوة في تجارة مصر (ولاسيما في الإسكندرية) مع البندقية في الفترة من القرن الثامن إلى الحادي عشر، خبرتهم الكبيرة في تجارة السكر في مصر في العصر الفاطمي (٩٠٩-١١٧١م)، والتي شملت مختلف أرجاء البحر المتوسط والبحر الأحمر إلى الشركات التجارية الهولندية على فترات متعاقبة. وشملت عملية نقل الخبرات هذه عمليات التصنيع والتجارة، حيث كان هناك في الفسطاط والدلتا (حسب وثائق الجنيزة المكتشفة في حفريات الفسطاط، ومن بينها معبد يهودي نهاية القرن التاسع عشر) ثلاثة مصانع لتكرير السكر مملوكة ليهود من بين ١٣ مصنعاً سجلته الوثائق المذكورة، والتي أوضحت أن السكر الخام كان يجلب للفسطاط، حيث يعالج ثم ينقل إلى الإسكندرية (وكذلك إلى قوص في صعيد مصر التي كانت حينذاك بوابة تجارة مصر تحديداً إلى سواحل البحر الأحمر الجنوبية وشرق إفريقيا والمحيط الهندي)، ليحمله التجار الإيطاليون من البندقية وجنوا وبيزا لتوزيعه في أوروبا[٣].

وكان ميناء عيذاب في العهد الفاطمي- ولقرونٍ قليلة بعده- محطة مهمة للسفن القادمة من شرق إفريقيا إلى جانب جنوب شبه الجزيرة العربية والهند والصين. وثمة واقعة وردت في

(١) Bianquis, Thierry, Autonomous Egypt from Ibn Tulun to Kafur, 868-969 (in: Petry, Carl F., editor, Islamic Egypt, 640-1517, The Cambridge History of Egypt) Cambridge University Press, Cambridge, 2008, p.87.

(٢) Goitein, S. D. and Friedman, Mordechai Akiva, India Traders of the Middle Ages: Documents from the Cairo Geniza ('India Book') Brill, London, 2008, pp. 17-8.

(٣) Schreuder, Yda, Amsterdam's Sephardic Merchants and the Atlantic Sugar Trade in the Seventeenth Century, Palgrave Macmillan, London, 2019, p.33.

وثائـــق الجنيزة تعزز حضـــور التجار اليهود في التجـــارة «المصرية» مع شـــرق إفريقيا والقرن الإفريقـــي، وتفيد إحدى الوثائق- على ســـبيل المثال- بوصول مجموعة من التجار اليهود من مصـــر والمغرب للميناء قادمين من الهند مروراً بميناء بربرة على الساحل الإفريقي، ومعهم عبدٌ حمل اسم «صافي»، وكان خاصاً برئيس المدرسة اليهودية في «مصر القديمة»، وأهان أحد النبلاء (عُرف باســـم ابن جماهير) في حضور عدد من التجار المســـلمين؛ متهماً إياه بالتخلي عن أمة صغيرة بعد إنجابها طفلاً منه في بربرة.

ويتضح من الرواية عـــدة ملاحظات، منها: التزام التجار اليهود التام بالإجراءات والقوانين المعمول بها مـــن قِبَل حكام مصر، ووجود نفوذ راســـخ للتجار اليهود في ميناء عيذاب المصري (يفـــوق بكثير نظيـــره في ميناء بربـــرة)، إذ لم تحظ دعوى ابن جماهير ضد صافي لدى حاكم المدينة باستجابة فورية، بل اتجه الحاكم (إدراكاً منه بالوضع الخاص لصافي) للتشاور مع التجار اليهـــود المقيمين في المدينـــة، لكنهم رفضوا هذا التشـــاور أو التدخل دون إعلان الأسباب، وبعد شـــهادة أصدقاء ابن جماهير أمر الحاكم بجلد «صافي»، الذي استنكر الحكم لكونه غلام رئيس المدرســـة اليهودية، غير أن احتجاجه لم يلق آذاناً صاغية وجُلد وسُجن، حتى تدخل أحد التجار اليهود من المغرب وأطلق سراح «صافي» دون دفع أية أمـــوال. لكن الوثيقة التي تضمنت الحادثة أكدت فـــي موضع آخر مثول «صافي» أمام محكمـــة يهودية في مصـــر القديمة بعد عودته إليها[١].

واستمرت مشاركة التجار اليهود في التجارة الدولية ومســـاراتها الفرعية في العقود التالية، ولوحظ أنـــه بينمـــا كان ســـلاطين المماليك مشـــغولين نهاية القرن الثالث عشـــر بملاحقة الصليبييـــن في آخـــر معاقلهم في فلســـطين وشرقي المتوسط؛ فإنهم بدؤوا في تشجيع قدوم التجـــار الأوروبيين من البندقية وجنوا وغيرهما إلى مدينة الإسكندرية مرّةً أخرى، وتعزيز نفوذ كبار الأسر في التجارة وتمويلها، ومن بينهم أسر يهودية نافذة ضمن النخبة التجارية التي عُرفت (منذ العصر الفاطمي على الأقل) بـ«الكارمية»؛ وواصل سلاطين المماليك إرسال سفارات إلى ســـواحل المحيط الهندي للترويج لطريق البحر الأحمر، وكان للتجار الذيـــن تركزوا في مصر، ومن بينهم وكلاء لهـــم في «إثيوبيا» وفي النوبة، ومنهـــا إلى أقاليم مجاورة حتـــى حوض بحيرة تشـــاد، إلى جانب المناطق الأخرى في شـــبه الجزيرة العربية وحتى جنوبي الصين، دورٌ كبير في تمتين هذه الصلات على نحوٍ متبادل[٢].

ثالثاً: من غرب إفريقيا إلى «إثيوبيا».. بنيوية الاستغلال واختراع التاريخ:

تُقـــدّم حالتا «غـــرب إفريقيـــا» و«إثيوبيا» مثالاً واضحاً على اندمـــاج «التجار اليهود» في التفاعلات التجارية الجارية في إفريقيا في فترة ما قبل الاستعمار الأوروبي وبواكيرها (في حدود الإطار الزمني هنا)، ســـواء كوسطاء أو ممولين للتجـــارة، أو فيمـــا يتجاوز هذا الـــدور لصالح تهريب أســـلحة أو دعم عســـكري لصالح بعض

(١) Goitein, S.D.A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza, Vol.1: Economic Foundations, University of California Press, Berkeley, 199, p.133.

(٢) Oliver, Roland and Atmore, Anthony, Medieval Africa, 1250-1800, Cambridge University Press, Cambridge, p.19.

الأطراف الإفريقية ضد منافسيها، الأمر الذي يفضي في المحصلة إلى منطقية اندماج التجار اليهود فيما يمكن تسميته بـ«بنيوية الاستغلال» مع سياقه العام حينذاك.

وفيما يمكن أن يستدل منه على قوة هذه الفرضية؛ ما رواه المستكشف الاسكتلندي الشهير مونجو بارك Mungo Park (١٧٧١-١٨٠٦م) من أنه قد قابل من أسماهم «يهوداً يتحدثون العربية» في غرب إفريقيا على الضفة اليسرى من نهر النيجر، وأكد أن هناك أعداداً كبيرة منهم يعيشون بالقرب من تمبكتو، في إشارةٍ إلى وجود «العناصر اليهودية» في الإقليم قبل وصول «بارك» بعقودٍ طويلة؛ كما رأى بعض المؤرخين أن هناك بين سكان تمبكتو المسلمين في العصر الحالي من يتباهون بأصولهم اليهودية. وإضافةً إلى ذلك هناك جماعة تدّعي أنها من أصول نصف يهودية تعيش في جزيرة ساو تومي (على بعد ١٥٠ ميل قبالة سواحل الجابون)، ويردّون نسبهم إلى اليهود الذين طُردوا من البرتغال في العام ١٤٩٦م.

وفي العام ١٦٠١م أصدر التاج البرتغالي أوامره بالسماح للتجار اليهود، المتمركزين وقتها بالأساس في جزيرة كيب فيردي، بالاستقرار والتجارة على امتداد سواحل سنغامبيا وغينيا العليا. وسرعان ما عمل التجار اليهود كوسطاء على امتداد ساحل غرب إفريقيا، وحتى في المناطق الداخلية وسط الولوف وبقية المجتمعات الإفريقية المجاورة. وتركزت تجارة اليهود في هذه المناطق في: العبيد والشمع واللبان والعاج والذهب.

وفي سنغامبيا استغل عددٌ من اليهود الذي اعتنقوا المسيحية قسراً في وقتٍ سابق بُعد مستوطناتهم عن البرتغال للعودة العلنية إلى معتقداتهم السابقة (اليهودية)[١].

وانخرط هؤلاء اليهود- العالقون في واقع الأمر في سياقات الاستعمار البرتغالي- من القرن السابع عشر، وبعضهم ذوو أصول إفريقية برتغالية مختلطة أو ممن اتخذوا زوجات إفريقيات، في الاستيراد غير الشرعي للسيوف وتمريرها لبعض النخب العسكرية في غرب إفريقيا، كما طوّر هؤلاء، «سواء في كيب فيردي أو غرب إفريقيا بشكلٍ عام، ثقافة مكوّنة في حدّ ذاتها من عناصر إفريقية وأوروبية»، ويبدو أنه مع نهاية القرن الثامن عشر؛ فإن «العنصر اليهودي لهؤلاء السكان المختلطين قد تم استيعابه تماماً في المجتمع المُضيف»[٢].

أما في شرق القارة الإفريقية، وقرب نقطة تمركز رئيسة لليهود في اليمن المطل على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر وطريقه إلى شرق إفريقيا وبقية عالم المحيط الهندي، فقد أرجع كثيرٌ من اليهود الإثيوبيين جذورهم إلى اليهود الذين رافقوا منليك (ابن الملك سليمان وملكة سبأ..!) إلى إثيوبيا.

بينما يرى إثيوبيون آخرون أنه عندما غادر العبرانيون مصر في زمن النبي موسى- عليه السلام- هاجر بعضهم جنوباً (في مسارات طرق التجارة التقليدية التي خرجت من مصر منذ

(١) Parfitt, Tudor, The Jews of Africa and Asia (1500-1815), (in: Karp, Jonathan and Sutcliff, Adam, editors, The Cambridge History of Judaism, Vol. VII: The Early Modern World, 1500-1815) Cambridge University Press, Cambridge, 2018, pp. 1031-2.

(٢) Parfitt, Tudor, The Jews of Africa and Asia (1500-1815), (in: Karp, Jonathan and Sutcliff, Adam, editors, The Cambridge History of Judaism, Vol. VII: The Early Modern World, 1500-1815) Cambridge University Press, Cambridge, p.1032.

عشرات القرون) إلى إثيوبيا؛ بينما يؤكد آخرون أنهم أحفاد يهود قدموا إلى إثيوبيا في قرون لاحقة. ويُطلِق عليهم الأمهرا لفظ «الفلاشا» Falasha (المشتقة من كلمة fallasa الإثيوبية التي تعني يهاجر to emigrate). وتقر مصادر يهودية حديثة أنه في ظل غياب أدلة تاريخية يُعوَّل عليها فإن الأصل والتاريخ المبكر لليهود الإثيوبيين يظل مسألة محل شك «لدى العلماء الغربيين»، بينما يقوم الاعتقاد بأن «اليهود السود» هم أحفاد شعب أصلي تحوّل لاعتناق اليهودية على أربعة حقائق رئيسة:

(١) أن أغلبهم لا يمكن تمييزه جسمانياً في مظهره عن بقية الإثيوبيين؛

(٢) وأنهم لا يعرفون العبرية، ويتحدثون على اختلافهم لغات الجماعات التي يعيشون وسطها؛

(٣) أن ثقافة «بيتا إسرائيل» هي تماماً نفس ثقافة الإثيوبيين الآخرين؛

(٤) أن التقاليد الدينية اليهودية الإثيوبية تجمع بين العناصر الوثنية والمسيحية واليهودية[١].

وفي المقابل؛ ترى العديد من الروايات اليهودية أن «اليهود السود» عاشوا في الحبشة أو إثيوبيا الحالية (وفي مناطقها الداخلية، وليست المطلة على سواحل البحر الأحمر) قبل أكثر من ألفي عام، وأن الحبشة مثلت طوال تاريخها الطويل جسراً بين إفريقيا وآسيا، أو على حدّ وصف المؤرخ البريطاني البارز في الشؤون الإثيوبية إدوارد أوليندورف E. Ullendorff: «شغلت إثيوبيا دوماً مكاناً متميزاً عند مفترق الطرق الحضاري، ونقطة التقاء للكثير من

تكشف مساهمة التجار اليهود في تجارة السلاح والاسترقاق في غرب إفريقيا منذ فترة مبكرة (نهاية القرن الخامس عشر)... عن اضطلاع اليهود بدورٍ مهم في هذه التجارة كجزءٍ فاعل ومؤثر من قوى الاستعمار والهيمنة

الأعراق، أبرزهم الحاميون والساميون»[٢].

لكن الدراسات العلمية الحديثة أظهرت بوضوح كبير أنه يجب النظر إلى جذور الجماعة اليهودية في «إثيوبيا» في سياقات التطورات الدينية والسياسية التي شهدتها الأخيرة فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، وليس قبل ذلك بقرونٍ بعيدة حسبما تورد «الأساطير» الصهيونية عن يهود الحبشة. وقد شهدت هذه الفترة حالة سيولة إثنية ودينية كبيرة، وظهرت العديد من الجماعات التي أشير لها في المصادر الإثيوبية بـ«اليهود»، وتطورت هذه الهوية إلى جماعة إثنية عُرفت لاحقاً بالفلاشا. واستمرت الإشارة إلى لفظ «يهود» ayhud إما للمناوئين السياسيين أو المتمردين ضد الأسرة السليمانية في إثيوبيا أو للكفار بالمسيحية.

مع ملاحظة بالغة الخطورة والدلالة على «اصطناع» الوجود اليهودي في إثيوبيا، كجماعة واضحة قبل القرن الرابع عشر، يُقدّم في سياق التأكيد بأن الدين والإثنية، التي ظهرت في ذلك الوقت من هذه المجموعات المتمردة

(١) Onolemhemhen, Durrenda Nash and Gessesse, Kebede, the Black Jews of Ethiopia: the Last Exodus, the Scarecrow Press Inc, Lanham, 1998, p.9.

(٢) Ibid. pp. 3-5.

والمهرطقة، كانت قائمة نوعاً ما على شـــكلٍ من المســـيحية الإثيوبية، أو ما يعتبره مؤرخون أن المســـيحية الإثيوبية في الأصل شـــكلٌ يهودي للإيمان المسيحي[١].

واســـتمر دور التجار والعناصر اليهودية في الحضور في شـــرق إفريقيا من زاوية أخرى مع تمدد القوة البرتغالية التي غيرت عالم المحيط الهندي والبحر الأحمر؛ وعلى سبيل المثال فقد ســـاهم البرتغاليون، الذين انتقلوا بكشوفهم من ســـواحل غرب إفريقيا إلى شـــرقها وصولاً إلى الهند، فـــي دعم الإقطاعيين فـــي إثيوبيا، كما حدث في العـــام ١٥٤١-١٥٤٢م بتقديمهم دعماً عســـكرياً مباشـــراً وبالقتال في صفوف قوات الأوائل، كما تمثل في جيش كريستوفاو دا جاما Cristovao da Gama[٢]، ومـــا تلا ذلك من ترويج فكرة وجـــود «جماعة يهودية» في إثيوبيا الحالية. واستمر حضورهم بنفس الوتيرة تقريباً حتى بعد اســـتيلاء العثمانيين على الحجاز في العام ١٥١٧م وضمّه تحت الإدارة العثمانية ليكون جزءاً مـــن إقليم أكبر هو «إيالة الحبش»، وكانت عاصمة «الإيالة» في القرنين الســـادس عشـــر والسابع عشر كلّاً من «مصوّع» ثم «سواكن» على ساحل البحر الأحمر الغربي[٣].

رابعـــاً: اليـهـود فـي ركـاب حـركـة الاستعمار الأوروبي الحديث:

لاحـــظ المتخصـــص البارز فـــي الصلات الإفريقية الصهيونية المؤرخ الأفروأمريكي جون هنريك كلارك J. Henrik Clarke، في تقديمه لكتاب ريتشـــارد ستيفنز وعبد الوهاب المسيري (١٩٧٧)، أنه عند بدء الكشوف الأوروبية لإفريقيا في القرن الخامس عشـــر كان البرتغاليون، رواد الاستعمار الأوروبي الحديث في القارة الإفريقية، يبحثون عن طريقٍ بحري إلى الهند بالدوران حول الكيب Cape (مدينة كيبتاون في جنوب إفريقيا حالياً)، وحاولوا خـــلال إحدى حملاتهم المبكرة إقامة محطـــة لإعادة التزود بالوقود والمؤن على ساحل جنوب إفريقيا، وكانت هذه الحملة بمشورة إبراهام بن صمويل زاكوتـــو Abraham ben Samuel Zacuto، وهو عالم فلك يهودي خدم في بـــلاط ملك البرتغال مانويـــل الثاني، وعمل معلماً للفلك والرياضيات في جامعة ســـالامانكا Salamanca في إسبانيا قبل قرار الطرد الذي أصدره البلاط الإسباني في العام ١٤٩٢م.

كمـــا كان من أوائـــل اليهـــود الذين وطئت أقدامهم أرض جنوب إفريقيـــا فيرادو مارتينز Ferado Martins أو فيرنـــام ماتينـــز Fernam Martinz، وهـــو بحّار في ســـفينة فاســـكو دا جاما «ســـان جبرائيل»، وكان برفقة الأســـطول البرتغالي الذي رسا في خليج سانت هيلانة في نوفمبر ١٤٩٧م.

وفي الفتـــرة بيـــن ١٤٩٢م ونهايـــة القرن السادس عشر؛ خرج من البرتغال وإسبانيا نحو نصف مليون يهـــودي. وتباينت مكانة اليهود من دولةٍ لأخرى، غير أنهم ساهموا في تكوين شركة الهند الشرقية الهولندية Dutch East India

(١) Parfitt, Tudor, The Jews of Africa and Asia (1500-1815), (in: Karp, Jonathan, editor, The Cambridge History of Judaism, Volume 7: The Early Modern World, 1500–1815), Cambridge University Press, Cambridge, 2017, pp. 1027-8.

(٢) de Jesus, Roger Lee, Reassessing Portuguese military superiority in Asia in the sixteenth century – the case of land warfare (in: Carvalhal,Нйlder, Murteira, Andrй and de Jesus, Roger Lee, editors, The First World Empire: Portugal, War and Military Revolution) Routledge, New York, 2021, p.155.

(٣) Minawi, Mostafa, Scramble for Africa: Empire and Diplomacy in the Sahara and Hijaz, Stanford University Press, Stanford, 2016, p.101.

Company في هولندا. وعندما تمكنت الشركة في العام ١٦٥٢م من احتلال رأس الرجاء الصالح في العام ١٦٥٢م كانت الجماعة اليهودية في أمستردام جزءاً من هذه المستوطنة، لاسيما في ضوء حقيقة استيعاب هولندا عدداً كبيراً من اللاجئين اليهود. وبنهاية القرن السابع عشر كان يهود هولندا من كبار حملة الأسهم في شركة الهند الشرقية الهولندية[١].

كما حاولت الشركات الهولندية التجارية، وبشكلٍ ملحوظ مع مطلع القرن السابع عشر، السيطرة على المسافرين عبر سفنها من هولندا إلى غرب إفريقيا لضمان وجود دائم لممثلي هذه الشركات على الساحل، وضمان الإمداد المنتظم للسلع الإفريقية لأسواق الاستهلاك في شمالي أوروبا. ودعَمَ هذه الشركات معرفةٌ متقدمة بفنيات الملاحة المستخدمة في أوروبا وحوض البحر المتوسط، وكان تكيف هولندا في التجارة في غرب إفريقيا قائماً على معرفة الخبرة البرتغالية التي تحققت بالأساس عبر الملاحظة المباشرة، أو التي تم تحصيلها من اليهود السفارديم البرتغاليين والفلمنكيين المستقرين في أمستردام[٢].

خلاصات:

تُبرز ملاحظات الوجود التجاري «اليهودي» في إفريقيا في مراحل ما قبل الاستعمار الأوروبي الحديث عدة خلاصات ذات صلة، **منها:**

– أن هذا الوجود اتسق تماماً وبشكل لا لبس فيه مع حركة التجارة الدولية التي مثلت سواحل إفريقيا الشرقية والغربية جزءاً أساسيّاً منها، سواء عبر مصر والبحر الأحمر، أو عبر التمدد البرتغالي التجاري والعسكري فيما عُرف بـ«العصر الحديث المبكر في إفريقيا». كما أنه التزام بقواعدها وضوابطها الحاكمة بشكلٍ صارم، إما للمحافظة على هذا الحضور، وإما لقناعةٍ تامة بهذا الالتزام.

– أن تجربة إسهام العناصر اليهودية في التجارة مع إفريقيا قبل الكولونيالية تجرد فكرة تنميط الدور العربي/ الإسلامي في تجارة الرقيق الإفريقي من أبسط قواعد الموضوعية التاريخية، لتجاهلها وجود مكونات أخرى في هذه التجارة لا يتم إلقاء الضوء على دورها «الاستغلالي»، إلى جانب التجاهل التقليدي للدور «الإفريقي» نفسه في الظاهرة.

– تكشف مساهمة التجار اليهود في تجارة السلاح والاسترقاق في غرب إفريقيا منذ فترة مبكرة (نهاية القرن الخامس عشر) وطوال العقود التالية في هذه التجارة عبر المحيط الأطلسي (في ركاب البرتغاليين، ومن تلاهم من المستعمرين الأوروبيين) عن اضطلاع اليهود بدورٍ مهم في هذه التجارة كجزء فاعل ومؤثر من قوى الاستعمار والهيمنة، على نقيض الروايات الإفريقية التي تمجد النموذج الانعتاقي اليهودي في إفريقيا.

وإجمالاً؛ فإن المسألة برمتها بحاجةٍ إلى مراجعات مدققة وكاشفة في الوقت نفسه، مما سيسهم بجهدٍ كبير في تفكيك رؤى رائجة ونمطية للغاية للتاريخ الاقتصادي الإفريقي، ودحض الكثير منها لصالح فهم تاريخي أكثر موضوعية وإفادة في معضلة الفهم الإفريقي المتبادل مع فضاءات ثقافية وإثنية متداخلة أو متناقضة تماماً ■

---

(١) Stevens, Richard P. and El-Messiri, AbdelWahab M. Israel and South Africa, the Progression of a Relationship, North American Inc. New Jersey, 1977, pp. 7-8.

(٢) Da Silva, Filipa Ribeiro, Dutch and Portuguese in Western Africa: Empires, Merchants and the Atlantic System, 1580–1674, Brill, Leiden, 2011, p.180.